أنسي الحاج



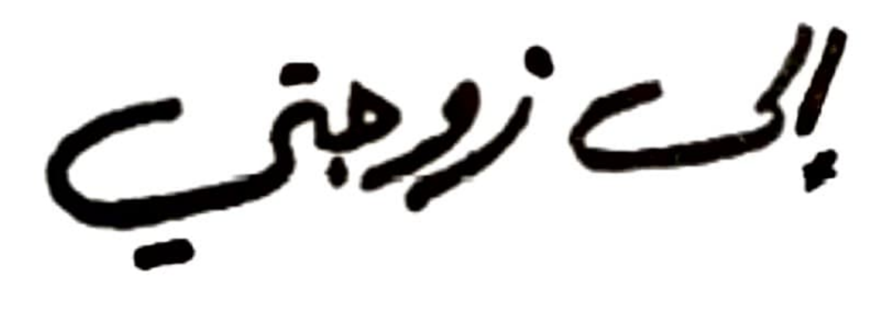
لن

دار الجديد

انسي الحاج

لن




إلى زوجتي

مُقدّمة

هل يُمكن أنْ يخرج من النثر قصيدة؟ النثر محلول ومرخيّ، مُتفرّق ومبسوط كالكفّ، وليس شدُّ أطرافه إلّا من باب التفنّن ضمنه. طبيعة النثر مُرسَلَة، وأهدافُه إخباريّة أو بُرهانيّة؛ إنّه ذو هَدَف زمنيّ، وطبيعة القصيدة شيءٌ ضدّ. القصيدة عالم مغلَق، مُكتفٍ بنفسه، ذو وحدة كليّة في التأثير، ولا غاية زمنية للقصيدة. النثر سرد، والشعر توتّر، والقصيدة اقتصاد في جميع وسائل التعبير. النثر يتوجّه إلى شيء، يُخاطِب وكلّ سلاح خطابيّ قابل له. النثر يُقيم علاقته بالآخر على جسور من المباشرة، والتوسّع، والاستطراد، والشرح، والدوران، والاجتهاد الواعي . بمعناه العريض . ويلجأ إلى كلّ وسيلة في الكتابة للإقناع. الشعر يترك هذه المشاغل: الوعظ والإخبار والحُجّة والبرهان، ليَسبق. إنّه يبني علاقته بالآخر على جسور أعمقَ غورًا في النفس، أقلَّ تورّطًا في الزمن الموقّت والقيمة العابرة، أكثر ما

تكون امتلاكًا للقارئ، تحريرًا له، وانطلاقًا به، بأكثر ما يكون من الإشراق والإيحاء والتوتّر. أمّا القصيدة فهي أصعب مع نفسها من الشعر مع نفسه. القصيدة، لتصبح هكذا، يجب أنْ تقوم على عناصر الشعر لا لتكتفي بها إنّما لتُعيد النظر فيها بحيث تزيد من اختصارها وتكريرها، وشدِّ حزمتها القصيدة، لا الشعر، هي الشاعر. القصيدة، لا الشعر، هي العالم الذي يسعى الشاعر، بشعره، إلى خلقه. قد يكون في ديوانٍ ما شعر رائع ولا يكون فيه قصيدتان، بل يكون كلّه قصيدة واحدة.

فالقصيدة، العالَمُ المستقلُّ الكاملُ المُكتفي بنفسه، هي الصعبةُ البناء على تراب النثر، وهو المُنفلشُ والمُنفتحُ والمُرسَلُ، وليس الشعر ما يتعذّر على النثر تقديمه، فالنثر منذ أقدم العصور وفي مُختلف اللّغات يحفل بالشعر حفلًا إذا قيس بشعرٍ النَّظْمُ يغلب عليه.

النثر، تقول العرب، خلاف النَّظم من الكلام، النثر، يقول الفرنجة، كلّ ما يُقال ويُكتَب خارج النَّظم. القصيدة من أبيات، بل يذهب العرب إلى الاشتراط: ما فوق السبعة أو العشرة أبيات؛ والتحديد الكلاسيكيّ للقصيدة عند الفرنسيّين هو أنْ تكون مجموعة كبيرة من الأبيات.

بكلمة: النثر خلاف الشعر (لأنّ الشعر، لا القصيدة وحسب، هو النَّظم في نظر التقليديّين) والقصّة، وهي

كائن نثريّ، خلاف القصيدة التي هي كائن شعريّ. وهنا يبدو البحث في قصيدة النثر هذيانًا.

لكنّ التحديد الكلاسيكيّ للأشياء خاضع للتطوّر، وما يشتقّه أو ما يُبدعه التطوّر ويبقى حيًّا أي مُلبّيًا لحاجات الإنسان لا محض موجة تكسرها في أثرها موجة، يحتلّ مكانه إمّا بجانب المفاهيم السابقة وإمّا على أنقاضها. وما يجوز على المفهوم يجوز على العطاء. قصيدة النثر احتلّت في أدب كأدب فرنسا مكانها الطبيعيّ حيث تُمَثّل أقوى وجه للثورة الشعريّة التي انفجرت منذ قرن. أمّا عندنا فأخفّ ما تُنْعَتُ به، على العموم، أنّها هجينة، وأرصن ما يقول فيها المُترصّنون أنّها سحاب زائل يغشى السماء السرمديّة. خارج بضعةٍ من المُرافقين المُتفهّمين، يُمكننا أنْ نرى المُهلِّل الذي يُهلّل لكلّ جديد سعيًا خلف إرواء ظمأ سطحيّ إلى إثارة كإثارة الزيّ، والصعلوكَ الذي يَعْلَقُ كحشرة بجسم كلّ انتفاضة تعشّقًا منه للتهريج والظهور، المُعرِضَ، المُهاجم، المُتشكّك، والمُتشكّك الذي يرجح أكثر ما يرجح، أخيرًا، في كفّة الإعراض. هل للتحفّظ مبرّر هنا؟ أجل، ما دام مُدَّعو قصيدة النثر ممّن هم على جهلٍ تامّ بها وإساءةٍ إليها وإسفافٍ فيهم، يتصدّرون الواجهة، وما دام لم ينقضِ

على معرفتنا الجدّيّة بقصيدة النثر عامان، وما دام العطاء الحقيقيّ ضمنها، لا التقريبيّ والصُّدَفيّ، لم يأخذ بعد طريقه إلى الناس. إنّنا نتحفّظ؛ لكن هل يحقّ لنا رفض الشيء قبل رؤيته؟ أليس انغلاقًا على الذات وغرورًا أحمق وموتًا، أنْ نصرخ: «قصيدة النثر غير صالحة!» و«قصيدة النثر ستموت!» وليس بين يدينا نتاج للحكم؟ «الشعر، يقول قائل، هو الموسيقى كعنصر أوّل، والنثر خلو من الموسيقى التي يخلقها الوزن والقافية. موسيقى الوزن والقافية هي التي، في الدرجة الأولى، تُحدث في القارئ الهزّة الشعريّة». لكن لا. موسيقى الوزن والقافية موسيقى خارجيّة، ثمّ إنّها، مهما أمعنت في التعمّق، تبقى مُتّصفة بهذه الصفة: أنّها قالب صالح لشاعر كان يصلح لها، وكان في عالم يُناسبها ويُناسبه. لقد ظلّت هذه الموسيقى كما هي ولكن في عالم تغيّر، لإنسان تغيّر ولإحساس جديد. حتّى في الزمان الذي كان زمانها، لم تكن موسيقى الوزن والقافية وحدها ولا أهمّ ما يزلزل القارئ. وقارئ اليوم لم يعد يجد نفسه في هذه الزّلزلة السّطحية الخدّاعة لطبلة أذنه. ثم إنّ الشاعر يأتي قبل القارئ، لأنّ العالم المقصود هو من صنعه. والشّاعر أعلم بأدواته، والشاعر الحقيقيّ لا يُفضّل الارتياح إلى أدوات جاهزة

وبالية، تكفيه مؤونة النّفض والبحث والخلق، على مشقّة ذلك. والشّاعر الحقيقيّ، اليوم، لا يُمكن بحال من الأحوال أنْ يكون محافظًا. إنّ مُعارضة التقدّم عند المُحافظين ردّةُ فعلِ المُطمئنّ إلى الشيء الجاهز، والمُرتعب من الشيء المجهول المصير. التّقدم، لمن ليس مؤمنًا بما يفعل، مُجازفة خرقاء، وهكذا يبدو للمُقلّدين والراكدين. وبين المجازفة والمُحافظة لا يتردّدون، فيحتمون بالماضي ويسحبون جميع الأسلحة من التعصّب إلى الهزء إلى صليبيّة المنطق التاريخي، بل إلى صليبيّةِ منطقٍ تاريخيٍّ زوّروه بمقتضى سفينتهم، فلم يروا في تاريخ الشعر غير ما يُؤيّد رجعتهم ويحكّ العواطف القشريّة للجماهير، وجعلوا يستخدمون ـ المنطق منطق اللّغة والتراكم الأدبيّ وحاجات الشعوب العربيّة وظروفها السياسيّة والاجتماعيّة والروحيّة ـ وفقًا لما يدعم نظرتَهم المبتسرة إلى الأشياء، إرادتَهم البقاء حيث هم، وإنقاذًا لأنفسهم من عجلات النهضة.

أيّ نهضة؟ نهضة العقل، الحسّ، والوجدان. ألف عام من الضغط، ألف عام ونحن عبيد وجهلاء وسطحيّون. لكي يتمّ لنا خلاص، علينا ـ يا للواجب المُسْكِر! ـ أنْ نقف أمام هذا السّدّ، ونبجّه.

بين القارئ الرجعيّ والشاعر الرجعيّ حلف مصيريّ. هناك إنسان عربيّ غالب يرفض النهضة والتحرّر النفسيّ والفكريّ من الاهتراء والعفن، وإنسان عربيّ أقليّة يرفض الرجعة والخمول والتعصّب الدينيّ والعنصريّ، ويجد نفسه بين محيطيه غريبًا، مُقاتَلًا، ضحيّة الإرهاب وسيطرة الجهل وغوغائيّة «النخبة» والرّعاع على السواء. لدى هذا التشبّث بالتراث «الرسميّ» ووسط نار الرجعة المندلعة، الصارخة، الضاربة في البلاد العربيّة والمدارس العربيّة والكتّاب العرب، أمام أمواج السُّمّ التي تُغرِقُ كلّ محاولة خروج، وتكسر كلّ محاولةٍ لكسر هذه الأطواق العريقة الجذور في السخف، أمام بعث روح التعصّب والانغلاق بعثًا منظّمًا شاملًا، هل يمكن محاولة أدبيّة طريّة أنْ تتنفّس؟ إنّني أجيب: كلّا. إنّ أمام هذه المحاولة إمكانين، فإمّا الاختناق وإمّا الجنون. بالجنون ينتصر المتمرّد ويفسح المجال لصوته كي يُسمَع. ينبغي أنْ يقف في الشارع ويشتم بصوتٍ عالٍ، يلعن، ويُنبئ. هذه البلاد، وكلّ بلاد متعصّبة لرجعتها وجهلها، لا تُقاوَم إلّا بالجنون. حتى تقف أيّ محاولة انتفاضيّة في وجه الذين يقاتلونها بأسلحة سياسيّة وعنصريّة ومذهبيّة، وفي وجه العبيد بالغريزة والعادة،

لا تُجدي غير الصراحة المُطلقة، ونهب المسافات، والتعزيل المحموم، والهسترة المُستميتة. على المحاولين، ليبجّوا الألف عام، الهدم والهدم والهدم، إثارة الفضيحة والغضب والحقد؛ وقد يتعرّضون للاغتيال، لكنّهم يكونون قد لفظوا حقيقتهم على هذه القوافل التي تعيش لتتوارث الانحطاط، وها هي اليوم تطمح إلى تكريس الانحطاط وتمليكه على العالم.

أوّل الواجبات التدمير. الخلق الشعريّ الصافي سيتعطّل أمره في هذا الجوّ العاصف، لكن لا بدّ. حتّى يستريح المتمرّد إلى الخلق، لا يمكنه أنْ يقطن بركانًا. سوف يضيّع وقتًا كثيرًا، لكنّ التخريب حيويٌّ ومقدّس.

هل يمكن أنْ نُخرج من النثر قصيدة؟ أجل، فالنظم ليس هو الفرق الحقيقيّ بين النثر والشعر. لقد قدّمت جميع التراثات الحيّة شعرًا عظيمًا في النثر، ولا تزال. وما دام الشعر لا يُعرَّف بالوزن والقافية، فليس ما يمنع أنْ يتألّف من النثر شعر، ومن شعر النثر قصيدة نثر. لكنّ هذا لا يعني أنّ الشعر المنثور والنثر الشعريّ هما قصيدة نثر، إلّا أنهما ـ والنثرُ الشعريُّ المُوَقَّعُ على وجه الحصر ـ عنصر أوّليّ في ما يُسمّى قصيدة النثر الغنائيّة. ففي هذه لا غنى عن النثر الموقّع. إلّا أنّ قصيدة النثر ليست غنائيّة فحسب، بل هناك قصيدة نثر «تشبه» الحكاية، وقصائد

نثر «عاديّة» بلا إيقاع كالذي نسمعه في ترجمة نشيد الأناشيد أو في قصائد شاعر كسان جون پرس. وهذه تستعيض عن التَّوْقيع بالكيان الواحد المغلَق، الرؤيا التي تحمل، أو عمق التجربة الفذّة، أي بالإشعاع الذي يُرْسَل من جوانب الدائرة أو المربَّع الذي تستوي القصيدة ضمنه، لا من كلّ جملة على حدة وكلّ عبارة على حدة أو من التقاء الكلمات الحلوة الساطعة بعضها بالبعض الآخر فقط. ولعلّك إذا قرأت قصيدة من هذا النوع (هنري ميشو، أنتونان أرتو...) قراءة لفظيّة، جهريّة للالتذاذ والترنّح، لعلّك تطفر وتكفر بالشعر لأنّك ربّما لا تجد شيئًا من السحر أو الطرب. التأثير الذي تبحث عنه ينتظرك عندما تكتمل فيك القصيدة. فهي وحدة، ووحدة متماسكة لا شقوق بين أضلاعها، وتأثيرها يقع ككلٍّ لا كأجزاء، لا كأبيات وألفاظ. ومن هنا ما قاله إدغار ألن پو عن القصيدة، (أي قصيدة)، إذ أنكر عليها أنْ تكون طويلة. إنّ كل قصيدة هي بالضرورة قصيرة، لأنّ التطويل يفقدها وحدتها العضويّة. وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق في النثر، لأنّ قصيدة النثر أكثر من قصيدة الوزن حاجةً إلى التماسك، وإلّا تعرضت للرجوع إلى مصدرها، النثر، والدخول في أبوابه من مقالة وقصّة ورواية وخاطرة...

لكنْ هل من المعقول أنْ نبني على النثر قصيدة ولا نستخدم أدوات النثر؟ الجواب أن قصيدة النثر قد تلجأ إلى أدوات النثر من سردٍ واستطراد ووصف لكنْ، كما تقول سوزان برنار، «شرط أنْ ترفع منها وتجعلها تعمل في مجموع ولغايات شعريّة ليس إلّا». وهذا يعني أنّ السرد والوصف يفقدان في قصيدة النثر غايتهما الزمنيّة، يبطلان أدوات الروائيّ والخطيب والناقد، توصلهم عبر تسلسل من الآراء والحجج إلى هدف واضح ومعيَّن، إلى الحسم في شيء.

هنا العناصر النثريّة تدخل في «كتلة لازمنيّة» هي قصيدة النثر، وتغدو مجرّدة من وظائفها السابقة.

كلّ هذا بحاجة إلى تفصيل وتحديد أوضح لا يتّسع لهما المجال. النثر وارتفاع مستواه[1] كان، عندنا، التمهيد المباشر. وممّا ساعد أيضًا ضَعْفُ الشعر التقليديّ وانحطاطُه، والإحساسُ بعالَم متغيّر يفرض موقفًا آخر، الموقف الذي يفرض الشكل على الشاعر. ثمّ هناك الوزن الحرّ، القائم على مبدأ التفعيلة لا البيت، الذي عمل منذ عشر سنين على زيادة تقريب الشعر من النثر، ونلاحظ هذه الظاهرة بقوّة عند جميع الشعراء العرب الشيوعيّين والواقعيّين، الذين اقتربوا من النثر لا في أسلوبهم ولغتهم فحسب بل في الجوّ والأداء، بينما نلاحظ عند

فئة أُخرى هي فئة شعراء «المستوى» اقترابًا من النثر على صعيد تبسيط الجملة والتركيب والمفردة، وتبقى التجربة أو الموقف في «عصمتهما» الفنيّة الصعبة[2].

هذه العوامل وسواها، كالترجمات عن الشعر الغربيّ خصوصًا، جَعَلت بزوغ النوع الجديد مُمَهَّدًا بعض الشيء، على صعيد الشكل بالأقلّ، وإن لم تتهيّأ له الأذواق حتّى الآن التهيُّؤ الطبيعيّ.

يحتاج توضيح ماهيّة قصيدة النثر إلى مجالٍ ليس متوافرًا. وإنّني أستعير بتلخيص كلّيّ هذا التحديد من أحدث كتاب في الموضوع بعنوان **قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا** للكاتبة الفرنسيّة سوزان برنار[3].

لتكون قصيدة النثر قصيدة نثر، أي قصيدة حقًّا لا قطعة نثر فنِّيَّة أو مُحَمَّلة بالشعر، شروط ثلاثة: الإيجاز (أو الاختصار)، التوهّج، والمجانيّة. فالقصيدة، أيّ قصيدة، كما رأينا، لا يمكن أنْ تكون طويلة، وما الأشياء الأخرى الزائدة، كما يقول پو، سوى مجموعة من المتناقضات.

يجب أنْ تكون قصيدة النثر قصيرة لتوفّر عنصر الإشراق، ونتيجة التأثير الكلِّيّ المنبعث من وحدة عضويّة راسخة. وهذه الوحدة العضويّة تفقد من لازَمَنِيّتِها إنْ هي زَحَفَت إلى نقطة معينة تبتغي بلوغها أو البرهنة عليها. إنّ قصيدة النثر عالم «بلا مقابل».

وفي كل قصيدة نثر تلتقي معًا4 دُفعة فوضويّة هدّامة، وقوّة تنظيم هندسيّ. لقد نشأت قصيدة النثر انتفاضًا على الصرامة والقيد؛ أليست هي، وحتّى الآن، تلك التي طالب بها رامبو حين أراد «العثور على لغة (...) تختصر كلّ شيء، العطور، الأصوات، والألوان»، وبودلير، عندما قال إنّه من الضروريّ استعمال شكلٍ «مَرِن ومتلاطم بحيث يتوافق وتحرّكات النفس الغنائيّة، وتموّجاتِ الحلم، وانتفاضات الوجدان»؟ إنّها الرفض والتفتيش، تهدم وتنسف الغلاف، القناع، والغلّ. انتفاضة فنيَّة ووجدانيّة معًا، أو، إذا صحّ، فيزيكيّة وميتافيزيكيّة معًا. لكن هذه الفوضويّة كانت لتبقى بجناح واحد عند رامبو لو لم يعطها الجناح الآخر: الهيكل. ومن الجمع بين الفوضويّة لجهة والتنظيم الفنّيّ لجهة أخرى، من الوحدة بين النقيضين، تتفجّر ديناميكيّة قصيدة النثر الخاصّة.

هذه الملامح تسمح لا بتبيّن النوع الجديد فحسب بل كذلك بتجنّب ما ليس قصيدة نثر. على أنّ ثمّة وجوهًا نسبيّة ظهرت وتظهر متبدّلة وفقًا للتطوُّر، وهذا التبدّل هو من ضمن ما تُوفّره قصيدة النثر من حرّيّة شاسعة وإمكانات لا تُحصَر في عمل الخلق وطلب اللّانهائيّ والمُطْلَق.

لا نهرب من القوالب الجاهزة لنجهّز قوالب أُخرى ولا نتعى التصنيف الجامد لنقع بدورنا فيه. كلّ مرادنا إعطاء قصيدة النثر ما تستحقّ: صفة النوع المستقلّ. فكما أنّ هناك رواية، وحكاية، وقصيدة وزن تقليديّ، وقصيدة وزن حرّ، هناك قصيدة نثر. لا نريد ولا يمكن أنْ نُقيّد قصيدة النثر بتحديدات مُحنّطة. إنّ أهميّتّها لا بالقياس إلى الأنظمة المحافظة في الشعر وحسب بل بالقياس إلى أخواتها من الانتفاضات الشعريّة كالوزن الحرّ، هي أنّها أرحب ما توصّل إليه توق الشاعر الحديث على صعيد التكنيك وعلى صعيد الفحوى في آنٍ واحد. لقد خَذَلَتْ كلَّ ما لا يعني الشاعر، واستغنت عن المظاهر والانهماكات الثانويّة والسطحيّة والمُضَيّعة لقوّة القصيدة. رفضت ما يُحَوِّل الشاعر عن شعره لتضع الشاعر أمام تجربته مسؤولًا وحده وكل المسؤوليّة عن عطائه، فلم يبقَ في وسعه التذرّع بقساوة النَّظْم وتحكُّم القافية واستبدادها، ولا بأيّ حُجّة برّانيّة مفروضة عليه. ومن هنا ما ندعوه القانون الحرّ لقصيدة النثر. فعناصر الإيجاز والتوهّج والمجانيّة ليست قوانين سلبيّة، بمعنى أنّها ليست للإعجاز ولا قوالب جاهزة تُفرِغُ فيها أيّ تفاهة فتُعطي قصيدة نثر. لا. إنّها الإطار أو الخطوط العامّة للأعمق والأساسيّ: موهبة الشاعر، تجربته

الداخليّة، وموقفه من العالم والإنسان. وهذه «القوانين» نابعة، كما يُخيّل إليّ، من نفس الشاعر ذاته. لقد استُخْلِصَتْ من تجارب الذين أبدعوا قصائد نثر، ورُئِيَ، بعد كلّ شيء، أنّها عناصر «مُلازمة» لكلّ قصيدة نثر نجحت، وليست عناصر مُخترعَة لقصيدة النثر كي تنجح.

لكنْ حتّى هذا الانسجام بين الشروط والشاعر ليس نهائيًّا. ليس في الشعر ما هو نهائيّ. وما دام صنيع الشاعر خاضعًا أبدًا لتجربة الشاعر الداخليّة فمن المستحيل الاعتقاد أنّ شروطًا ما أو قوانين ما أو حتّى أسسًا شكليّة ما هي شروط وقوانين وأُسس خالدة، مهما يكن نصيبها من الرحابة والجمال. القاعدة القديمة: العالم لا يتغيّر، باطلة. ومثلها جميع المواضعات المُتعلّقة بالإنسان. الشاعر ذو موقف من العالم. والشاعر، في عالم متغيّر، يضطرّ إلى لغة جديدة تستوعب موقفه الجديد. لغة «تختصر كلّ شيء» وتسايره في وثبه الخارق الوصف إلى المُطْلَق أو المجهول. أقلّ عقدة شكليّة تعطّل انطلاقه وتحرف وجهته. أبسط هَمّ خارجيّ يسرق من وحدة انصبابه على الجوهر. وأخطر من ذلك كلّه العقد والسّنن حين تكون جاهزة، وذات تراث طويل، أي ذات قوّة أقدر على إيقاع الشاعر في

حبائلها بما لها من إغراء (إغراء الراحة) ومن سلطان (سلطان التراث الطويل). وهذا ما يحصل للشاعر العربيّ مع الوزن والقافية وشعره القديم، وقطع هذه المرحلة يقتضي جهدًا فائقًا لا من أجل الرفض النظريّ لها فقط بل كذلك للنجاح في التخلّص من رواسبها، ورواسبها شكليّة وضمنيّة. وإذ يجتاز الشاعر عقبة العالم الميت يفرّ من الأقماط. غير أنّ أبواب الشعر الصافي، عالمه الجديد الذي عاد إليه، لا تنفتح أمامه ما لم يحسن مخاطبتها أو هي، إذا انفتحت، لا بدّ للشاعر أنْ يضيع في الداخل ما لم يكن يعرف تبيّن عالمه وبلورته.

اللّغة... إنّه في حاجة دائمة إلى خلق دائم لها. لغة الشاعر تجهل الاستقرار لأنّ عالمه كتلة طليعيّة. أجل. في كل شاعر مختَرِعُ لغة. وقصيدة النثر هي اللّغة الأخيرة في سلّم طموحه، لكنّها ليست باتّة. سوف يظلّ يخترعها.

ما يُسمّونه الأزمنة الحديثة هو انفصال عن زمن العافية والانسجام. إنّه تكملة للسعي الذي بدأ منذ قرن لا من أجل تحرير الشعر وحده بل أوّلًا لتحرير الشاعر. الشاعر الحرّ هو النبيّ، العرّاف، والإله. الشاعر الحرّ مُطلَق، ولغة الشاعر الحرّ يجب أنْ تظلّ تلحقه. لتستطيع أنْ تواكبه عليها بالموت والحياة كلّ لحظة. الشاعر لا ينام على

لغة.
شاعر قصيدة النثر شاعر حرّ، وبمقدار ما يكون إنسانًا حرًّا، أيضًا، تعظم حاجته إلى اختراع متواصل للغة تحيط به، ترافق جَرْيَه، تلتقط فكره الهائل التشوّش والنظام معًا. ليس للشعر لسان جاهز، ليس لقصيدة النثر قانون أبديّ.
نكتب لنقطع مرحلة، وما نكتبه يُطوى، يُحرَق. ما لم نكتبه ولم نعرفه ولم نَغُصْ بعد فيه، هو الهمّ.
يجب أنْ أقول أيضًا إنّ قصيدة النثر ـ وهذا إيمان شخصيّ قد يبدو اعتباطيًّا ـ عمل شاعر ملعون. الملعون في جسده ووجدانه. الملعون يضيق بعالم نقيّ إنّه لا يضطجع على إرث الماضي. إنّه غازٍ. وحاجته إلى الحرّيّة تفوق حاجة أيّ كان إلى الحرّيّة. إنّه يستبيح كلّ المحرّمات ليتحرّر. لكنّ قصيدة النثر، التي هي نتاج ملاعين، لا تنحصر بهم. أهمّيّتها أنّها تتّسع لجميع الآخرين، بين مُبارَكٍ ومُعافى. الجميع يَعبرون على ظهر ملعون.
نحن في زمن السرطان. هذا ما أقوله ويُضحِكُ الجميع.
نحن في زمن السرطان: هنا، وفي الداخل. الفنّ إمّا يجاري وإمّا يموت. لقد جارى، والمُصابون هم الذين خلقوا عالم الشعر الجديد: حين نقول رامبو نشير إلى

عائلة من المرضى. قصيدة النثر بِنْتُ هذه العائلة. نحن في زمن السرطان: نثرًا وشعرًا وكلّ شيء. قصيدة النثر خليقة هذا الزمن، حليفته، ومصيره.

أ.ح

خريف 1960

1 فؤاد سليمان خاصّة. وأعتقد أنّ نثر إلياس خليل زخيّا أقرب إلى مفهوم القصيدة من معظم نثر فؤاد سليمان.

2 النقيضان في هذا المعنى شاعرٌ كعبد الوهّاب البيّاتي من الأوّل، ويوسف الخال من الآخرين.

3 كان أدونيس أوّل من تناول هذا الموضوع بالعربيّة، في العدد الرابع عشر من مجلّة شعر، 1960

4 أوّل وأفضل مثال على ذلك قصائد رامبو النثريّة.

هويّة

أخاف.
الصخرُ لا يضغط صندوقي وتنتشر نظّارتاي. أتبسّم،
أركع، لكنْ مواعيد السرّ تلتقي والخطوات تُشعُّ، ويدخل
معطف! كُلّها في العُنُق. في العُنُق آذان وسَرِقة.

أبحثُ عنكِ، أنتِ أين يا لذّة اللّعنة! نسلُكِ ساقط،
بصماتُكِ حفّارة!
يُسلّمني النوم ليس للنوم حافّة، فأرسمُ على الفراش
طريقة: أفتحُ نافذة وأطير، أختبي تحت امرأتي.
أنفعلُ!
وأشتعل!...
تعال أصيح. تعال أصيح. إنّني أهتف: النصر للعِلم!
سوف يتكسّر العقرب، وأتذكّر هذا كي أُنجبَ بلا يأس.

ثُمطر فوق البحر

أُناديكَ أيُّها الشبحُ الأجرد، بصوت الحليف، والعبد، والدليل، فأنا أعرِف. أنت هو الثأر العائد، صلْبًا كالرّبا، فاحشًا، أخرس، وخططي بلا مجاذيف. أُسدِل رأسي على جبيني فتحدجني عينُك الوحيدة من أسفل؛ النهارُ يتركني اللّيلُ يحميك. النهارُ يدفعني «لك اللّيل!» فأركض، اللّيلُ رَجُل! أهربُ أين وأنا الأفق؟
الحياة حيّة. العين دَرَج، العين قَصَب، العيْن سوق سوداء. عينيَ قِمْع تقفز منه الريحُ ولا تصيبه. هل أعوي؟ الصراخ بلا حَبْل. هناك أريكة وسأصمد.
سوف يأتي زمن الأصدقاء لكن الانتظار انتحر. الجياد تُسرع، عَبَثًا عَبَثًا، الخوف رقم لا نهائيّ.

السقفُ ينحلّ في قلبي والأرضُ لا مكانَ لها. أُهرولُ وأُقذَف، يكنسني الصدى، صدى! الأرض بعيدة بلا طريق، الأرض تنزل بلا عَتَبة.
أُطلَقُ على الهواء، أغرز الهواء بألیافي.

بلا تَعَثُّه، الحركة ليست ضدّ اللّيل، الحركة عمياء تَرى باللّيل. قُم! المصباح خادم ويدك خادمة. (أضحكُ منّي)

قم! هوذا أنا، الباب يُطرَق.
الباب: هنا الموت. وجهُهُ وجه القَدَر وظهرُه الضياع
يُطرَق ولا ينتفض، فهو يبقى.
يجب أنْ أبكي. كيف نسيتُ أنّ الدموع تعكّر المرايا؟
المرآة غابة لكنِ الدمعةُ فدائيّ. فلأسمع جلَبَتكِ أيّتها
الرفيقة! فلأرفع لواءك حتّى تتقطّع أوتار كتفي!

تُمطر فوق البحر

لم يعد في العالم دمعة

والحزن؟
ما سعر رجل حزين! التغضّن علامة، الغضب إبحار. دُرَفُ
الصّرْع تذيع الربيع، وعند الصباح تتعانق المذبحة
والظّفَر وحسدًا أخْلَعُ وجنتيّ.
لكنِ الخوف!
ما
الخوف؟
لا تبدأ. سأضؤل، وأصمت. جناحك، عينك الأُفقيّة!

مولاي: لا! خُذْ قبلي الآخرين!...

دم حديث.

أسلوب

حَلْمتاي ومَثَلي الطيّب. أقول هذا: لولا قوّة فرحكِ لأسرعتُ أقتطع جوعًا أو أملًا. لَغْوكِ الأشقر ينتظرني عندما تنتابني الوداعة فيُعيدني إلى الأصوات البعيدة. ثمّ يداكِ تركضان دائمًا على ثيابكِ؛ الطبيعة زاخرة ومُباحة، لكنّني أقتاد بسهراتك ومن تحت سقفك أعضدُ انهياري. يا دليل الوقوع! اخترتكِ بين محرّضيّ لأُحبّكِ وأبصق. أقول هذا: لأعبُدَكِ وأدلّ عليكِ: إنّني نهرها! أيُّها المنتظرون لأنضج، أُسقّهكم بهذا النبع، فهو أميركم. على أصفى أراضيكم أشكُّ يأسي. وغدًا تقولون: أعماهُ شَعْرُها الطويل! واللّيلة أفضح باطلكم. أقول هذا: «مليئة بالأجنحة»، أقول أيضًا: «مصطفقة بالزيت». بلا شرف أمرُّ على وجه العالم. ظلال العقم على جوانبي، إنّ مسرّات هائلة يحلم بها باعةُ قراري ولكنّهم سيذوقون العار والحَيْرة. إنّني أمضي فقد صَرَختُ آخر صرخة. الطبيعة قدوة وراغبة، لكنْ على الجناح وطّدتُ

خنجري واتّكأتُ عليه. أحكمُ بثقة وموت مُشرَع.

الغزو

كان يتأمّل من الثّقْب ليرى إذ الحرب ستقع. خَرَجتْ أنفاسه هجمتْ لتفتح الباب هي تصرخ «الصبر قبر!» فرفع ذراعيه ليخطب لكنّها لبطته في قطبه وكاد يتراجع لولا الفضيحة فعاد إلى المقاومة وخاطب أنفاسه «الصبرُ قبر... لكنِ الحربُ قريبة! انتبهي إلى عينيّ» فضحكتْ وأراد أنْ يقول شيئًا لكِن القطبُ ارتفع إلى مستوى الحدث وجعل يقول «مَن ضربني على خصيتي اليمنى أصاب لأنّني أضعتُ اليسرى. من وجد لي خصيتي اليسرى فليأكلها لأنّي سأفقد اليمنى» وطار صوابُه فوضع النصف على الأنفاس والآخر على القطب وحاول قَمْعَ الثورة لكنْ دون عبث فقد استيقظتِ البشريّة في جسمه وراح الجميع يطلبون المجاعة. وإذ كان تحت الغزو ينهار انهار الباب من ورائه وحُمِلَ إلى الخارج.

الحرب. لقد انتصرتْ شعوب جسمه.

البطولة. الحرب معطفُ الشهوة.

الحرّيّة،

سوف يفترس في الطريق أوّلَ امرأة.

في إثرك

كلمة سمراء تحت يدي
ووجهكِ أسمر
أين أنا؟
كلمة كلمة نحوكِ أعرج،
أتَصَهْصَه.
قائدي، يا قائدي
نَيْشِنّي!

لأبقى

أصدقاؤكِ هيّأوك لعهدي
أحبّاؤكِ عتّقوك لأنتشر فيك
لآكلك عشّاقك أنضجوك
ها أنا!

- حين أسترخي جوارك لمَ لا تأكلني يا سيّدي؟ هذي ليلتي الثانية، للآن لم تلمسني. أما أفتنك، آه! لماذا لا تأكلني؟
- لأبقى في انتظاركِ. إبعدي.

خطّة

كُنتِ تصرخين بين الصنوبرات، يحمل السكونُ رياحَ صوتك إلى أحشائي.
كُنتُ مُسْتترًا خلف الصنوبرات أتلقّى صراخكِ وأتضرّع كي لا تريني.
كُنتِ تصرخين بين الصنوبرات: تعال يا حبيبي!
كُنتُ أختبئ خلف الصنوبرات لئلّا تريني، فأجيء إليك، فتهربي.

رحلة تفقّد

كانت تهرب على فَرَس بنصف جسد، يثب عليها. راهقتْ بعذاب طويلًا، طويلًا ترامت إلى الوراء.
انتهى.
رَشَدتْ، ولدتْ للدّم. من ملايين السنين وهي تتراجع؛
انتهى.
هوذا دهرها، وهي المُعافاة الآن وحدها. لا تسمع، بدأت ولن تفهم. خزائن الرحمة ماعت جَرَفَتْها دموع المُفترَسين الأُوَل. البرُّ البحرُ الفضاءُ جُمعت في الإصابة والعنين؛ لا ثقة بها. الصُّلبان طُبعتْ بالنار ودُقّت على الصدور، لم تقوَ، دُحرج هذا، جُتّز، العالم صندوق!
ليل نهار تُقرع أجراس النجدة في الأحشاء والسّوسةُ عُريانة تقطع الصوت. بجلودنا مُرضعة، مُرتدية تاريخنا، معروكة بدم هاطل بالسمّ فائض لا أمل. آدم! لا أمل.
سوسة أو عقرب، نخر وامتصاص، أشباحًا نهوي تحت حوافرها.

داخلة أنتِ فينا لا كَوَباء أيّتها العروة الأصليّة. إنّك تعقدينا فيكِ إلى الأبد لأنّك عَمَلُنا وأنتِ تَفَتُّحُنا أيّتها الرائحة، وقد أعدَمتِنا الشعور بعطر سواكِ. أطلقناك بالمنيّ والفم والفساد والشهوة، لن نقدر أن نهرب، سنتلقّاكِ لأنّك اكتملتِ! إنّي باسمك أُطلعهم على السرّ، باسمكِ أُميتهم. ملفوف بأجنحتكِ حتّى أصيرك، لا نوى وراءك في شيء. كم تفلفلوا! يا ملكتي كم عيونهم نقّبت وانهاروا أمامها وغصّوا! تناسلوا مُتواعدين على الغلبة، وسقطوا بلا عيون لا نسل ولا فجر. ينتظم الانهيار أسوارًا جديدة ستبقى. وَصَلتْ أمواج الدّم الأسود إلى الحواجب، أنتِ تفرزين ونحن نَسْبَح، نغرق ويحتلّ الأطفال دوائرنا. بعدكِ لا جدوى من الخضوع، فلنقطع الركبة ونصبّ العنق عموديًا. لا خضوع، آدم! يا موت! بعث، يا كفاح! لا شيء. فرّخي كثيرًا لتُوحّدك جميع الأقاليم وأنا حيّ.

حوار

I

قولي: بماذا تُفكّرين؟
أُفكّر في شمسكَ الّتي لا تُنيرني يا عاشقي.
قولي: بماذا تُفكّرين؟
أُفكّر فيك، كيف تستطيع أنْ تصبر على برودة قلبي.
قولي: بماذا تُفكّرين؟
أُفكّر يا عاشقي في جبروتك، كيف أنّك تُحبّني ولا أُحبّك.

II

قُلْ: بماذا تُفكّر؟
أُفكّر كيف كنتُ، وأحزن من أجلكِ يا حبيبتي.

أُفكّر في شمسي الّتي أذابتكِ، وفي جَلَدي الّذي خضّعكِ،
أُفكّر في حُبّي الّذي ركّعكِ، ثمّ مَلّكِ يا حبيبتي.
أُفكّر في المراثي يا حبيبتي.
أُفكّر في القتل.

الثأر

مررتُ بالأرضِ التي سكنتِها مُذ هجرتِها فسقطتُ في شَعركِ. تسلّقتُ شجرة، نظرتُ إلى القريةِ التي رأتنا أنتِ تهزّين رأسك (أوّاه. أضنيتكِ!) وأنا أُقنعكِ أنّ العودة شاسعة لا تسع الحمّى، قرية حَمْلَتي الأزليّة نظرتُ إليها فرأيتُ الأهالي سُعداء.
نزلتُ وانحنيتُ على الأرض
قرّرتُ عَقْرها بمُخيّلتي.

حالة حصار

لسانُ جرَس ـ يا أطعمة اللّحم، أنساكِ! ـ في رأسي، وحدي
وأسيح عبر العَرَق والخشوع، العارُ وراء أُذنيّ وأرسم
الهواء.
رأيتُ مخرزًا يحفر بطنَ حامل وخنزيرًا تُراوده فراشة.
بصوت مرتفع ذهبتُ في الطريق. نُكحت من بؤبؤيّ
وعلى الورقة كتبت بياضًا العصافير صارت، بهذا السبب،
تدعوني لتغيير طريقي. إنّ حكايتي سخيفة أيُّها
الحدّاد! إنتبه وتوقّف عن الضوضاء. قلتُ: الموتُ عَلَمُ
الثأر، وقلت له: الويل لك من ألواننا الغامقة.
إنّني حقًّا مُتلعثم وصغير. لقد كان في فمي سهام
وسموم أَقتَلُ!
رأيتُ طفلًا يُخصى لأنّه تعرّى والشمسُ تراه.
الله ويداه وَشم على منتصفه. الله إليته.
تُبْ إلى الربّ كَسَدْتَ
هجّر شياطينك مُتْ

صُراخك مطعون هيّا!

لأنّ لعازر قلتَ له هلمّ لعازر خارجًا؟ مُرني فأبقى. إنّني أعتصم بالقبر فعلى القبر السلام وفي القهر المسرّة.

أغصانُ أبدكَ جماجمُ قتلى، مُجونك جَلْد وسَحْن.

رائحتي مُستديرة، فما أدقّ أنفك! جميلة نظراتك، رقيقة ألفاظك.

وتفرّ

تُراودك صلاة.

لا أُعاتَب فقد ناديتكَ طويلًا والسماء تلبخني بالأرض،

قل لي ما يزعجك أمَوتي أم حياتي؟

أرى الغيم عَلَقًا مدهونًا بالزجاج (أسناني!) أرى الطوفان خلاص البرّ أرى نوح تريكة؛ قُبّعتي يوسف الحسن،

فابْعدْ فابْعدْ وعينُك عليّ. أدوخ على انهزامك

ووراءك كلاب مُحرّرة. أدوخ على انهزامك ثمّ أفيق،

وأرنبة أنفي ساحة لك! ومئة ألف ملاك

والملاك يطير، وأنا

أغوص

أُعلن العهرَ الحقيقة.

البيت العميق

البيت والدخان يتعانقان والظلّ غائب؛ أبسُطُ قامتي على الشمس فأُصبح من أشعّتها. لا حاجة للزّرع والنجدة، لا حاجة لعَرَق الهارب، لا حاجة للقرع للقرع للقرع. البيت العميق خال مُتلألئ، وأبديًّا يزلج على اللّحم!

ندفن اللّحم ولا نثأر له

الموج ضعيف، والريح.

الموج لا يُغرق البحر والريحُ فجوة.

ندفن اللّحم ولا نبكيه. ندفن اللّحم ولا نعرفه.

ندفن اللّحم ولا نُفلّع البيت العميق، الروح العميق، الله العميق.

ندفن اللّحم ونأكله

نأكله ونبصقه

نبصقه ونزرعه

نزرعه لنخنقه

اللّحم!

البيت والدخان يتعانقان. البيت والله، البيت والروح،
البيت والكلمة، البيت والنقص
والشمس.

اللّحم الملء خَطَفَ الظلّ واختنق.

إحساس مُرْهَف

جميع الفلّاحين يُحبّون المُغلَقين والمُغلَقون يقطعون الصلة. «تعالوا إليّ...» من أنتَ؟ ها أنذا أجيء، لكنْ أسدُّ أنفي. أضواء السير جبال الدّرَن والنكباتُ محفوظات! مالك تحت برّ ما. أتخلّفُ لأتجمّع وعلى حين غرّة أصعق. أيّتها الأرض المُزَلْزَلَة! نيرانكِ سهرة البرد، الشتاءُ حانة البِحار أمّا أنا فأصبُّ من ذعري. أقول للأرض لا يهزّها زلزالها.

أيُّها الحكيم! إليكَ وصفي: إنّني مطويّ كعجوز بالٍ عفريت، مكسور كملك مغلوب وحقود. أنا لكي أقول: هِهْ!

عفاف يياس

فقدْ تملّكني الرُّعب، لا أذكر.
لا أذكر كيف تَكَوّن الدمُ على فخذيّ وحَمِيَتْ أذُناي من الوهلة. ماذا تظنُّ أنّني، أنا؟ ولا مرّة إلّا حلمتُ أنْ يكونَ شَعري أجعد لأنّ الأملس شَعرُ عاهر سرّي، أنّ جلدي مجدور كالقلعة عميق بالشظف والعسكر.
في مُنتصف اللّيل طفلة تموء وشهوانيٌّ عزلة.
كُلّ ما أذكرُ أنّني في الخندق ألتهم جسدي فيموت فأحشو جثّتي ندمًا فيحيا. ولم يكنِ البابُ مسدودًا. كنت أختبئ وأتصوّر، وهكذا أطمئنّ. لكنّها دَخَلتْ وانتشر الدم كالقهوة وللمرّة الأولى اغتسلْتُ. وصَرَختْ في وجهي؛ حصلتُ عليك! فقبّلتها أسوة بالشاذّين ورحتُ أستبعدُ مقابر المدينة.
آه فقط لو هنا لصّ آخر! أُراهنُ أنْ الغريق لا يغرقُ بلذّة وهو وحيد في البحر. ما أقسى كلامي؟ لا تُوزّعوا حرارتكم عليّ تُغِيروا مثل القيء تُوَقّعوا خُطاكم في

ضميريَ كالشهادة. لعبثُ لامحًا المستقبل، مُفكّرًا أنّ الثمار لا تَعقد الأشجار.

غُموض وكَلَب! تلك الواقعة يُغطّيها حَرُّ التفكير فيها. لن تقفَ على الشاطئ لتتأمّل البحر بل لتخوضَ بأحلامك في الأُفق. لم لا يُقابَل العالقُ بينهما؟ آهِ الجدار! الفكرُ فاقدُ الاسم والزئبقُ مات والكلماتُ بنات!

صَرَعتُها تلك المَحبّات. يجب ألّا تكون العاقبةُ دمًا، ابحثوا عن طريقة؛ إنّ هذا الفتح أقوى من قلوبنا. طريقة ناشفة.
إختَرِعوا لنا عفافًا بلا دم.

فَصْل في الجِلْد

فليذهبْ ملكوثُ القشعريرة أبا الهول! أبا الهول! خُذْ
صمتيَ وامنحني. يسوع
ديكك لا يصيح
ديكك لا يصيح
يسوع!
ديكك لا يصيح.
ريّش بسحرك تنديمه أعتقْ لسانه نَجّه
يسوع أنقذْ نفسك إنّي
أرضع
ريقَ

التماسيح.

النهاياتُ سَفَرُ الطير شهقة كالقطار ودمع
والبَدَن ينهض!
الجِلدُ يرتفع كغطاء التابوت

يُسرع!
يُنْفَشُ كمنخارين
الكُلّ يُثيرون الجِلْدَ الجِلْدُ حماسيّ أحمق. هات السوط!
السوط! الوسط! الجِلد يُربّى بالقوّة.
أي! الضربُ يُثير الجِلْدَ الجِلْدُ يُثير الضرب الفاجعةُ
القشعريرة
تُرَشُّ النجاسةُ بالسخرية!
أي!
أغاني الحرّيّة زرْعُ الهزء
وريقُ التمساحِ عبارة!
ألحمني بك، أيُّها الجبل، لعلّ الجماد. خُذْ صمتيَ، أيُّها
الجبل، وامنحني!

ملكوت القشعريرة يا سيّدي
أنتَ الطريدةُ يا سيّدي
كلاميَ هذر والشعر قهر مشدود النواجذ يخنقه الحنين
أنت هو الشمال
فلتتغرغرْ حنجرتك
وليأتِ ملكوتك
رياحُكَ أبدًا تُنهض الجِلد وإنّي أبدًا تَحْتَه.

للدفء

عوض أنْ تُقْبِلَ من أُمّك تَزَوّجْها.
الأحرفُ تتلاحق. عوض ذلك يجب أنْ تتداخل. الصّمتُ يُشبه حروفًا يسكن يزْكب بعضها بعضًا بالتصاق تحتَ غارة. ليست الحروف قطارات. عوضَ أنْ تصمتَ مُتْ.
تحتيًّا
تحت الحلق. وراء قشرتك.

مجيء النقاب

جاءت الصورة؟ لماذا تتأخّر! كلّا لم تجئ. لم تجئ؟ وكيف أتجنّبُ النظر؟ مَنْ يُنقذني من آلام الرحلة؟ أين؟ وراء. في الوراء. في وراء. وراء الصوت. اللّيفة، اللّب، الصُّلب. هل أتخلّى؟ مُتأخّر؛ أرفعُ الجلسة، أُؤجّل. لم أُكلّف. لِمَ أنا؟ فليدفعوا. فلأطمحْ للصورة!

يتضارب ذهني، أحلف أُحيّي وأُغنّي. أقرأ. كُلّ شيء في الهواء؛ وأنا. رُحْ إلى الشطّ أيُّها الفكر، تحلحل. الحياة ذُبابة ذُبابة، طاقتي عينان رياضيتان. أرفضُ العصْر! لا تشدّوني!
آخرون آخرون. أنا ظلّ، أُريد هذا. مرحبًا! أنت أيضًا؟ ليس هُناك واحد؟

السجنُ القبرُ الكوب. بؤبؤي ورأسُ مسمار: أغرزُ، أُعمّق، أتوغّل. مسمار إلى الفوز!
جاءت الصورة؟ كلّا، لمْ. جاءت الصورة؟ كلّا، لم. جاءت

الصورة؟

أجل إسترحْ.

قواطع

لحظةَ أُلجئكِ إلى حُبّي أقلبُ اللّحظة.
في وجهها الآخر أتّسع، أستريح.
لوجهها الآخرِ فجوة
أقعدُ فيها لأبدأ.
الأخْذُ يُراقب اليد
حَذِر ليَغدر
منطقيّ كدُمّلَة.

نحوَ لا أدري

إحملوني، كلّا! ستفعلون... إليكِ أتوجّه، احمليني إلى الفُسحة التي تطوي نفسها وتنشرها، هودجيّةً وسريعة، بلا نهاية ولا انفعال، في أقصى العيد حيث ينعدم الطقس وتُبْرأ اللّفظة.
نحن الاثنين تحملينني بحنوّ وفرح، ننطلق بلا ماء، نعود إلى التحليق حيث لا جرح على ملح قلبينا.

ترتيلة مُبعثَرة

لن أُسمّيَكِ اسمًا موسيقيًّا، لن أتبرّع لكِ بمفاجأة
إنّني شغوف بعُريك حيث يأخذ هذيانيَ مجده
إنّني جائزة باسمكِ.
ما معنى الرّمز؟ فم في الماء
لكنّيَ فم أصلع أعمالي مُخْتَرَقة وبلا هدف.
الرّمزُ غيب
وسُرّتك تُغيّب العالم كدوّار الماء
الرّمز قوّة، ووهجكِ كسل مسلّح
وأنا حُرثومة مُدلّلة بين نهديكِ.

لقد عمّدوهنّ بأسماء غريبة
إذا دعوتكِ شيئًا فسأنساه.
هناك كُتب لها رائحة الغُرف وأُناديها يا كُتبًا لكِ رائحة الغُرف. هناك شِعر كالزجاج المُكسّر أُناديه: أيُّها الزّجاج المُكسّر. لكنْ لم أُمسكْ لك بمنادى. أنتِ واضحة تتعقّبني

سُمرتُك ولهاثُ رحِمك يسكنني.
تُؤدّين أدوارك في عينيّ وتفتحين شبابيك في نخاعي
الحلمُ في مخدعك ومخدعك حيلة واعية!
ولسوف أدعوكِ
آه! ماذا؟
ولسوف أكتشف لكِ سجنًا
آه
من يُخرجني منه!

فُقّاعَةُ الأصل أو القصيدة المارقة

شارلوت على الإصبع تندفع بيضاء وحدها حيث يتخثّر الفحم ويَغْرَق، حيث تصير الفواكه.

وسأروي حكايتي. ففي أحد الأيّام نمت وحينما نمت أيضًا كان المطر يُحقّق في الأرض وظللتُ أبكي حتّى نام المطر فقمتُ إلى الحمّام ولاحظتُ ظاهرة غريبة. كنت ما أزال متواريًا وكنت سأخرج من الحمّام طبيعيًّا ومألوفًا لولا شارلوت. كانت تخرج من إصبعي بجهد ونعومة؛ حاولتُ أنْ أُساعدها لكنّها سريعة العطب وسرعان ما أيقنتُ أنّها سريعة العطب فمضيتُ إلى العمل ونسيت. في العمل كان لا بُدّ أنْ أدخل إلى المرحاض حيث أتبحّر في الخليقة دائمًا وكالمُعتاد سرّحتُ نظري في يدي وأنا أبذل ذاتي فلاحظتُ شارلوت مرتاحة، ونظرتُ فيها عن كثب فألفيتُها تنظر إليّ فاقتربتُ منها فاقتربتْ هي أيضًا ثمّ أكببتُ عليها حتّى آلمني بصري وفجأة

تنبّهتُ أنّ شيئًا أهملتُ إدخاله فأدخلته ثمّ عدت إلى اهتمامي وما زلتُ حتّى فضضت سرّ هذا المُغلَق.

لقد علمتُ أنّ شارلوت التي تَنسلُها إصبعي في منتهاها، قبل بداية الظفر، إنّما تخطّت القافلة كشّافة تتجسّس! للحال حقدت عليها. وقلت لها:

ماذا تُريدين؟

فاشرأبّ عنقها وأجابت:

أأنت هو المَرْكَب؟

ثمّ قالت:

أتيتُ أقول لك، والحقّ الحقّ أقولُ أقول لك لك، إنّ العقد سينفرط، إنّنا متخلّون عنك، إنّك مُبدّد شرّ تبدُّد، فأرجوك أنْ تحفظ لنا الاحترام لأنّنا لم نغدر بك!

ثمّ قالت:

الوداع!

ثمّ قالت:

أنا علامة. نهايتك عن طريقي وطريق سواي من العلامات، ستُطْبق عليك العلامات. سوف تُنْسَلُ نَسْلة نسلة حتّى يبرز لحمك العاري ثمّ ينهار لحمك العاري ويسفر عن عظامك ثمّ تُلقى عظامك في اللّيل.

ثمّ قالت:
إنّا إليه!
ثمّ قالت:
مرّة أُخرى لا تُخلَق ومعك هذا الدم، أيُّها الكلب!
ثمّ قالت:
إحكِ كلمة!
فقلت:
إنتظري حتّى أُغادر المرحاض.
ولما فعلتُ انقضضتُ على شارلوت وخلعتها. وذات ليلة نهضت لأتأمّل كالمعتاد في مُعضلات الخليقة وفجأة رأيت شارلوت على الإصبع فرسمت إشارة الصليب فازدادت شارلوت. وهنا خِفت ثمّ خفت ثمّ خفت حتّى أصبحتُ غابة من الخوف وبعدما أصبحتُ غابة من الخوف عدت فأصبحتُ غاية في الخوف وبعدما أصبحت غاية في الخوف عدت فأصبحت آية في الخوف، وهكذا حتّى انبلج الصبح وزقزق العصفور وتولّتني حاجة قاهرة إلى المرحاض، وما كدت أدخل حتّى أسندتني شارلوت إلى الجدار وفكّت ثيابي ونزلَتْ بي.
عندما شبعتْ قلتُ لها وأنا ألهث:

سأتركَكِ على نموِّكِ لن أخلعكِ.

ثمّ قلت:

طلبتِ منّي أنْ أحكي كلمةً؟

ثمّ قلت:

إذنْ سأحكي.

ثمّ قلت وأنا ألوي رأسي، وأتَمسْرح:

إصعدي من أُنملتي في الريح، واستمرّي.

ثمّ قلت وأنا أرتعد:

لقد علمتُ أنّكِ طليعة الكُلّ الذي سوف يُخرجني.

سِفْر التكوين والهجر

أراكِ وفمُك الحُرّ، بعيدة.
يمرّ دهر عميق ثمّ أرفع فمك
وتمرّ هنيهة
مُقيّد في صُرّة لا أزيح الباب عن قلبي.
شفتاي شفة.
أيُّها المَوطن الزّفرِ، إنّك معها!
أمرُّ قبل جَرعها
أتناول الحبر لأعميك.
مُصطفى كي أسبح فيّ وحدي.
دهرُ أبوابك لديّ!
يا رجْلكِ ترتع في نظراتي النوّاحة، رجلك عند رجليَ
كاحتضان!
يا رأسك (متى؟) على رأسي!
يا هَرَبي يُرَدُّ إليّ، ينام عليّ...
أرقبكِ والضجرَ عاريًا.

عَمَلي

ثُريد أنْ ترى، تكونَ مقبلة
وقابلة
وقاطرة، تنتظم تحتفل تقتتل...
أفتحُ للهواء أكاد أختنق
يأسي على كتفيكِ، أين تذهبين؟
عمركِ سنتان، وعمري.
ثُريدين، أريدي،
لن!
إنّك أمامي، أُبصر كُلّ شيء نظرة أخيرة وأتركُ لكِ الإرث
أقرب.
من جديد
مُوتيني.

... لكنّكِ تَخْرقين قَدَرًا وتخلقين قَدَرًا
وتَصْنعين نجمة

ونجمة
وتحتَ عينيكِ الأكثر حبًّا من النبؤات
الكونُ بيتُنا الجميل.

على ظِفرك إلى ضعفي

أنتظرُ وصرير عظامي.
ما من مَقْعَد أشدّ تحطّمًا.
أودّ لو أبكي لأنّكِ سافرتِ. أطفر للعتبة وأُنادي:
أُحبّكِ! تُحبّني،
يردّ الضحك.

رفعتِ ضحكك وهربتِ، من صداكِ سقطتُ كإجاصة.
سماء جلدكِ لانث على وَجَعَي. هاجع تحت سُرعتك
مُسمّر بنظري وكلابُ الصيد حنّطها أزيز مرحك. ذهبتِ
وكُلّ هبوب بساط لكِ، جميع أطرافكِ سفن ورياح.
مضائق أظافرك
ضاجّ وباهظ طَفوي على محطّ عصافيرك.
فوق ظِفر رحلتِ إلى الضباب. الحقائب بقيت، على ظفر
رحلت إلى الفجر. جلستُ على حقيبة أعود من سَفَر.
طيري. أُضاعفك هنا، وأرقدُ أُبرزك. تركتِ في ظلّيَ

المُشعّث حجر ظُفْر أزرق وأسناني.
ذيلك يصعق كالديك. وفجأة أشمخ:
«فلأُصبحْ رَجُلًا!»
أتقدّم، يا انتفاخة حلمي، وأنزف من صدغيّ.
الساعةُ هي دائمًا متّحدة. رمشها كالكلس. هرعتُ وراء ممحاة لقيتُ بحرك يعلو وأعلو ولا يمتصّني. خلف حركة خلف سور لكنّ بحرك لا يَحْركُ بغيرك. عدوتُ ألقط ثأرًا سبقَتني إلى رجائك دقّةُ عيني الهمجيّة. مُقطّر وأظلّ في صهيلك الأعمى.
حلمكِ ناصع كالنوم، مفقود أنا من زندك. وراء همس وراء ما يجرجرني فاتنًا إلى قدميك.
لو بقيتِ! إنّك الآن أكمل وأحدّ. ما يفتح عينيها ما يفتح عينيها للمُسافرة؟ إلْعَبْنَ بهما مُغمضتين يا وهج يا لفْح، صُنْ يا شررَ الفجر ليل عينها لي. حلمها ناصع ومضَ جارح، أحببها يا فجر وأبقِ جسمها لامعًا لأُضيء.
لو بقيتِ! تصعدين في الضباب على رأسي وأحفرُ الموج تحت قدمك. عَرّي
عَرّي
عَرّي قدمك لأُزهر بالرعشة. ما يفتح عينيكِ؟ لتُبصري ذراعيكِ تشهقان للفرح! أشقّ جسدي للحسك، تتورّدين كأميرة ككتف تُنْهَش تختلجين. تحوّطين الميعاد

بنهديك: وصلتِ!
أنفلشُ قنبلة، قنبلة، قنبلة تنخنق بكبرياء والرملُ يُدفئها.
المساء حارّ، النوافذ مشعشعة، وأنتِ.
أنتظرُ. إلى اللّقاء! غصصتُ صفحتُ وأنتظر، إلى اللّقاء!
أُوصد اللّيل والحرارة، أقعد للبكاء. لو هيكل يركع أمام ما أُجهَض!
ها أنذا أُمَصُّ كحُبّ حلو فمتى أُنهى؟ على ظفْر رحلتِ إلى الضباب، حجارة الضبابِ لزجة وأبدًا لن تعودي. أيّ لقاء؟ أُوصد كلّ شيء وكبطّة أبرك للموت وأتخدّر.

لا!...

يا ليل الصيف أنا آتيك! على الطريق أدفعُ الضرائب أفعلُ العجائب. أجلسُ تحت عينكَ (أنت!) أرجعُ أرنبًا مُلطّخًا وزهرة. إقطعِ التّفَس! أرجع مجتاحَ الركبة. على كفْكَ لا لي منير غيركِ. نحوها وجّهني كمشيئة، لا لي طاغية سواك. أريد أنْ أعيش! أُخاطبها عنها في لحمي أُقيم (أنتِ!) بعد هجركِ في صحوك، أنتحب كسُنبلة يابسة في الريح... أمطري أمطري في البعيد، سوف مالحةً أرشفكِ من بحرك.

تنخفض السماء أعلو، وأبقر السماء.
لا!...

تنخفض أرتفعُ وأطرق البوّابة، أرتجفُ، وأرتمي، أهزُّ الله.

أضربُه!

لها لها، أحْيني يا الله!

صياح يقف ويركض

إنّهم يُحَيّونني ويتركونني تحت وطأة العُذر، لكنّهم لا يعلمون. إنّهم يبتسمون ويعزفون حواجبهم على تعاستي، ولا أنت تَعْلَم. أنت أُسطوانة من الوعظ الضائع. لا تنقّ، قد أعضّك (عفوك). عندما تتكلّم أتفتْت كلدى نغم حزين مُتراجع. إنّك قاس، جانبيّ وبارد. أطلب منك الرحمة عجْلى، ولتمتنع عن التمايل كأنّك أنضج. لمّا جَلَستْ قربي كانت تظنّ أنّها تحضن مأهولًا، ولم يأتها الصبح إلّا من بعد، أيُّها الكاهن!

ديك يُضايقني.

تُطالبك بالحلّ أسرعْ، لِمَ تحجزها؟ أينما كان يمرّون كالركض فلِم تتباطأ؟ ستحوّل عنها نَفَسك الوقور، لا تضخّم شفقة تولّتها نحوي: كنتُ مهجورًا.

يُتابع الديك وأرفض أنْ أسمع أكثر. كلانا يعرف الرواية مَنْ تخدع؟ كلانا

مخدوع، كلانا

لنعل كاهن كلانا
ليغرِّرَ يعترفُ تحت فخذ كلانا
محكوم بديك.
لا تُساوم. «أريحي ضميرك»، الفظها، واصرفها.
كلانا ضَجِرَ من هذا المسرح ولا تُسمِعْها ما يُذلّها يُريها
أنّك خبير بالبواطن أيُّها الضامر الحسّ! خبيث الجنس،
مغطّى! إختصر التهريج كلانا
داخل في الآخر
لا تحشر أنفك في رقّتها إنّها
لي! كنتُ قفرًا لا لأبقى.
من كُرسيّك لا تزحف إلى جسدها كلانا
عريق في لاهوت الأفعى
أخرس.
أجهلُ ما أفعل بك إنْ أثارتك حرارة صوتها إنْ هيّجك
جمالها. سأكون هناك، لا تأخذ أوضاع الإغراء، بعجلة
مثّلْ، لا تُناقش كلانا
يعرف ويُخفض عينَي الآخر.
إنّها تفترق عنّي لتركع عندك، وسنكون معًا، أنت، وأنا
أقتلك. عمّ تبحثُ في تضرّعها؟ تبحث عن سرير! فَلْتَطِرِ
الأجراسُ تتطايرِ المباخر، قطُّ لم أصرَعْ لكنْ إذا هززتَ
الجَرَسَ في نخاعها، رمقتها بعينك المكتشِفة إذا رسمتَها

على دموعها.
إذا
هرهرتَ عجزك على كتفيها ألقاك عند المذبح وأقتلك.
كنتُ أبدًا متحرّكًا بين متربّصين؛ الآن تتحرّكُ أنت وأتوقّعك. قطُّ لم تسمن يدي ما خَرَقتْ شيئًا. إنْ طرحْتَ سماءك عليها خَرَقَتْكَ يدي. كلانا يعرف ويخفض عيني الآخر، لكن أنا (الآن!) أشدّ طلاقة منك.
بدو أنْ تعلم أقتلك
يا أبي
فاحفظ نفسك من حُبّي.
إنْسَهُ. سمعتَ هذا؟ أحرقْه. كلانا مُتورّط تُعميه الغَيْرة، لا تؤاخذ. إنّك على جبهتي وأنا على كفّك في شفتك، إطْعَنّي!
«مِمّ أُحلُّكِ؟»، هكذا قل لها. «اللّيل مات؛ أيّ حُبّ يُتوّج ويبهر. الفجر ينهض من النوم، يصفّق لرعشتكِ، تخاطبك الأناجيل بالأسماء المختارة. إذهبي عانقي هذا الرجل!».
إنّ توسّلي يبلغ لحم أظافر قدميك. أدرْ لسانها بذلك، أضفْ (آه! لا تسلْ كم أُروّع كمْ أُبدّل لتُضيف!) كلّ الأشياء، النساء، والشموع، والمسيح، احتجزها وارْوِ لها «حينما يسوع قال»، أجل، لا تسلْ كم أروّع كم أُبدّل!
«أحبّوا بعضكم»، على كفّك تحت إبطك تذكّرْ،

«بعضًا...»، أي أنا! أقرأُ الطيبةَ فيك، مُتأكّد أنّك حنون مُدرِك ورصين. نحن أطفال هذا الوقت ساقطون، لكنّنا كسحان، عجائب ونُبكي.

إذا تخوّفَتْ فاقرصها (لحمها

سوف يستزيدك

لك الحرّيّة.

عرّها، وألصقها بك

وأرجعها لي.) أعنّي.

يدي تستطيل وتضيّق النّفس عندما تسأل، خلّص منها ياقَتك النظيفة. قُلْ لي: أُقبض يدك على حمقاء وُهبتَ الراحة. ردّها لي، أتوسّل أكثر فأكثر إلى عظيم قدميك، أيُّها البغل!

لا لا لا، غُفرانك

بل

أيُّها البغل!

آهِ كلّا! هل سمعت أيضًا؟ أهذي، ترفّقْ بي، أوصلني! قل لها فلتسكته.

لم أؤذها.

لستُ أراه، أهي تراه؟ وأنت؟ لعلّك تعرفه.

أنْ تسكته. أوّل شيء: تسكته. تصوّر: يقف ويركض، يُسيّجني، ثمّ يدخل، يخرج ويتسلّقني. لم أستأهله.

يركبني، أيُّها الكاهن...
لا!
بلى،
أيُّها البغل!
ما عقابك؟ لا أنت لا أحد.
لا تصدّق. صدّقت؟ أمزحُ أغلطُ أُذنِبُ أرأفُ أضرعُ لك
صدّقت؟ إنّه شيطاني الراسب وأنا ضدّه سوف أسحقه
لا تغتمّ اقلب الصفحة أترجّاك
غسّلها! مُرها أنْ أُهرّبها وأُعطيها جسدي وتُعطيني
ضحكها وحماستي، أنْ تُسكته.
قبْلي، قبل فمها وضحكها ونومنا
أنْ تُسكته.
أتركها! أعِدك، أترُكها، أحلفُ لك
أنْ تُسكته
وتُقنعه أنّي، أنا، لم أزرعه
وتسحقه
هارب الآن، ها أمشي ولن ألقاها
تُفَصْفِصُه!
نداؤه أحمر، عزْفه يجتاحني ويقطف مستقبلي كأنّه
ثمرة، لكنّه غير ثمرة! جَلَبَة عظيمة والأنهار العظيمة
تروح وتجيء بيني وبينها، ولا أجرؤ أنْ أُعطيها يدي!

صوته، يا سيّدي! نَصَبني في تراب أرض أُخرى، يتأمّلني ولا يُروّضني، قويّ، ليّن كالسيف وأعرفُ أنّه لن ينكسر عليّ دُفعة واحدة. يتوقّف ويهجم، يتعب ويجعر، يتأرجح بشَعري ويهتزّ كمُجامع. لكنّني أجهلُ ما يريد، أجهلُ ما زرعتُ!

إنّني أُظلَم يا سيدي، لا كتمْتُه في حنجرتي لينفجر، ولا نفختُ ناره، أجهله وأتبرّأ منه. لن أحصده!

تُفَصْفِصُه، هناك جَسَد لم يصنع هذا الديك. لقّنْها كيف تُجزّئه، ليكنْ إعدادُكَ سريعًا كعاشق مُدهش، ولا تُغمض عينيك أسفًا.

علّمها (يا لاهوت المسرح!) أنْ تغمرني، بالسماء، تُضاجعني،

تُفَصْفِصُه

تُفَصْفِصُه

عَظْمي يضغط نهدها، وبين تضاغُطنا الدّيك، ديكُ العالم، والتاريخ، والأجراس، والنعمة.

ديك راسب فيها، الله، الله، الله!

أمصُّها، وأبلعُه.

نشيد البلاد

يا بلادي، من الأعماق لا أُناديكِ، لم أقرأ قصّتك وأتمنّاك رَحِمًا أُمزّقها.

ـ خائن!

يا بلادي، أتزوّجك لأتقذّر. حظّك معي مُبْك. تجنّين كيف لا أُبالي بك؛ تجنّين حقيقة؟ رُحنا إلى المحلّات، فَتَنَتْكِ رصاصة، هيّجتُك ولم تُطلقي. حقيقة أنتِ بلادكِ؟ عصفورك دخان أسود، صيّادك الخيبة تصرعه يعيا، فاتحك يكمل إلى كبده يعلّقها، يا بلاديَ، مِنْ فتحِك!

ـ خائن!

يا بلادي، لماذا؟ لا الغد قادم ولا الأمس رى. أُصدقي. تستلفتينني باتّهامي، دعارتُك فراشة مُسفّة، لستُ نورًا أبيض لكنّي أخطفئ فراشتك مع هذا. يضخّمك احتدادك وظِفري يَفقِس حوضك يا عُلوق ثعلب بقطّ! لا أطردك، لا أتركك. يُتْرَكُ يُطرَدُ الحاضر يا عُلوق حَجَر بحَجَر، أيُّها المَنِيُّ، أيُّها المَنِيُّ، أيُّها المَنِيُّ الذي أعشَبَهُ الخَرَف!

ـ خائن!

يا بلادي، في الموت إذا استدعيتكِ فلرَحِمك، أوسّعها،
لأرفعَ عَلَمَكِ عضوي، أُوهمك ذلك (مسيحيّ أنا) أُشبعك
بوهمِ أنّ عضوي أنتِ، تصدّقين وترتاح أعصابك. عضوي
أنتِ! عضوي أنتِ!
يا بلادي عضوي اللّيل، إنّك تخذلين استهزائي. ماذا
أُعطيكِ؟

ـ خائن!

حسنًا، تهدّأي، ألجأتني للشفقة. إقتربي، فلا أزال. أيضًا
وأيضًا، بَعْدُ خطوة: إفتحي أذنك. إنحني (أستلقي في
مَهَل على بطني) إفتحي أذنك، انحني
وأكثر:
يكاد لا يُسْمَع، من فرط صُراخه، بُكائي!

الحبّ والذئب

الحبّ وغيري

ا

لم أشْعر إلّا نادرًا هكذا.
بَرَزَتْ سمراء كأيّ فتاة مُلوّنة، غدوتُ مجذافها النظريّ.
أمّا الرياح فكانت دائمة وكانت وحيدة الرئة، وبغتة
دُفعة جديدة وَصَلتْ أقوى، أحْنتني، وَقَعَ نظري على
الحُبّ، وها أنا أؤخَذ، أردتُ نعمة القدرة على القتل
لأفتكَ بالكلمات من فجرها حتّى أبدها. انغمرتُ مدّة.
أخطأت، آه كم زعقتُ آه وأنا أُخطئ وألَذّ! أحفظ منه
بحنين تلك الخطوط الزرق، مركبَ نشيش، بضعة أثلام
من الرعشة، هنا، هنا، هنا، أجهلُ أين.

ألّا أُبصر أمامي، ورائي، أطرافي، ومع هذا ألتقط الشوك
أمام رجليها، ذلك. كان ذلك! سريعة الكلمات مُرتبكة،
كنتُ نظرًا شاخصًا إلى هائل؛ هائلة كَوْمتي المدعوكة.
إلى هائل؛ هائلة، كانت، هائلة لهفتي إليك.
لم أُخدع رأسًا. ككل خوّان أردتُ الإقلاع لأنّ السهم
جاهز وبي قد امتلأ سَلَفًا. لأُنفّذ قراري خَدَعْتُها، أصغتْ

إليّ، وإصغاؤها ضيّعني.
«لا أُحبّكِ لأنّ لا عمل يقدر أنْ ينقل لك حبّي. حلزونيّ تَلهُّبي، أحدب، مقعّر! أحشائي تُهاجم الآنية تنسفها، صراخي يُسحَنُ تحت الشمس والخوف؛ اللّعبة تُوحي النقصَ، وأنتِ الخسوف. ما أرقّ عينيّ أشدّ وفائي للظلمة! تذهب أفكاري. كيف أصونه منك، خرابي! تماسُكي! خَرْقي المنتهي! شُعاعكِ ضدّ لعناتي، آه ما أقساكِ حين تُشعّين!».
أرجعُ إلى السهم لأرتقيه، أتلاشى؛ لكنْ أقطعُ حَيلي.
أرجع إليكِ لأسقط.
أرجع إلى الكلمات أُبغضها.
لا أُقرّر.
أرجع نحوكِ لأسقط إعياء أمام الخلاص. دقيقة أُغنّي، دقيقة أنوح. أعود إلى أستارك أتفرّس كالمخبول في مجهول أفراحي، إلى الشوق أستظلّ أعراقي، إلى المنفى لأندم.
وأُقرّر! السهّام المريّحة، إلى الجحيم؛ إنّني باقٍ! أُعطيتُ قشّة البحر الوحيدة، فلأعْلَقْ بقشّة البحر الوحيدة. غدًا، بعد كَسرها، أطير.
فلتعصف الرياح لم تَعُدْ عاطلة، ولتُزحْ أسواري. ألْقوا المرساة وافتحوا المحيط لعينيّ، وأنتَ! تهلّل أنت، يا

فحيحي.

من منفاي أُلوّح وأصرخ؛ لا تتوقّف أيُّها العدوّ، يا حُبّي!

II

الآن أُغمضُ عينيّ منفردًا بسكّاني لأُخرجَهم، أُنظّفَ البيت من مَتاعه، أنفخَ القسوة على الدار، أنتظركِ في وطنِكِ مذبحتي.
أُغمضهما لأتبعثر في خَبَلي، يا شجرة خَبَلَي الّتي لا تُحَدّ، لتُذاع أشلائي على بَلَدِك، لأحترق وألطأ بأسفارك. الرمادُ يدوم يا ناري، قاعُ النداء، يا ناري، الرمادُ طيّار في بَلَدِك، أعشابي في بَلَدِك، الرمادُ شكلي في نعلِكِ يرجّعُني.
أحترق لا أُبْعَث، لا أرجع لأُشفَك. أحترق وببرود أدخلكِ.

قلتِ أُموّجُ بالزُّفات شفتيّ، بالعَرَض عينيّ، كلماتي بالرمل في اصطدامه بالرمل، وأنتِ قُربي يُبعدك الصفير؛ لكنّه انفجاري! لا حيلة لي. أُوجّه الريح وهي مُذْريتي؟
الآن أُغمض عينيّ لأصْلب وهمكِ على شهوتي، أسجنك كاللّقمة.
وأفتح الآن عينيّ
أُغلقُ الحلم، أغلق الضحك

أُغلق الحلمَ الذي يُضحككِ يا حبيبتي.

III

نزلتُ إلى متاجر السبائك أبتاع لأجلكِ صيغة للرؤيا، بوقًا لانهائيّ الصدى أُعبّئه بهتافي، أضعه قبالةَ صدرِكِ وأفتحه، وأترك صدركِ طُعمة لغبار أعماقي.

ألأنّكِ موقّتة؟ وقعتُ في التكرار، صرتُ أناديكِ «يا حبيبتي!» ألفَ مرّة، يبستُ من طغيانك وفكّرتُ أنْ أُلبّس بالرّعْدِ اشتعاليَ المترهّل. النار، لكنْ! لا تُحشى، نسيتُ أنّ النار حريّتك الناشبة في عنقي، أنّ ترابك لا يُختَرَع، أنّ جناحي طيّ سرورك، يا فاعلة الجرح . أستزيدكِ! . يا فاعلة الجرح في صدر منفاي، أتلوّى لتُظفّري فيّ وتُنيّبي!

مِن متجر السحر رجعتُ إلى القفر لأنسلخ.

ظالم حضوركِ في لياليّ

ظالم طموحي إليكِ

أبحثُ عن صيحة عذراء همهمةً طائشة لا أجد.

عيون اللّغة الأولى فتّحوها، وقبل مجيئي هتّكوها يا

حبيبتي. آهِ لو أكون فقط مملحة تُرتّبها يداك! أكنتِ موقّتة؟ كنتِ! لو أكون لتطرديني، ألتقط آثار يدك على جسدي، أحفظها، آكل كالأحدب غنيمتي! لو أُخيّل على فرارك، أُطيّر استخفافك، أُعضّض أرجاءك. آه! لو أطلعُ من توتّري كفارّة من البحر، ونيّئًا أصبُّ في عينيكِ.

IV

في ينابيع الألفاظ رطوبة وفي أسنانكِ البيضاء.
هنالك أنحني وأحذف العوسج وأتحسّس الضفادع المُختبئة، أُحرّك الريش وأُداعب جبيني، أمّا أنتِ فلا تجوز عليكِ حتّى النقمة.
الكلمة والموت والوقت مُزرّرَة، أمّا أنتِ فتفتحين مسامّك تُنقّين هواء الأرياف الضالّ، وتطيرين وتصنعين القماقم.
في ينابيع الألفاظ لي مكامن للألفاظ. أنتِ لا تفهمين غَزَلي.
قهقهي.

٧

في البدء كان الشرط.

الأرضُ في اليد، أو الغصن، المَسْك. عندما يُنْزَلُ عصفور يُلْتَقَط.

دَقَقْتُ الخصر ليناسبَ غرْزَ أظافركِ يوم تتشنّجين.

توحّشي

إلى أحشائك حَلَبَتِكِ، وأُهاجرُ نحو مرمى أستنزلُ صاعقة غير حبّكِ وأسقطُ بلا ريش ينعاني إلى الريح.

VI

من شُرفة إلى شُرفة، وقارّة إلى قارّة، ألوذ بكِ في حجرة سوداء وأحار بين أوصافي.
لكنْ وراءك حائط غير مبنيّ، كلما غمزتُ أمواجي وأراكِ.
أدور على نفسي كحصان على ثُنّة، بين شرفتين.
الخضاب بعيد، والحُبّ لا أراه وأنا المُرجَعُ أسقطُ على الركبة والراحة، آه! كلّ هذه الرياح بيننا! أشمّكِ بلا خضاب وأحبّكِ كثيرًا، المسافة ترفعكِ في خيالي وأصير كرة.
تنأين جَفِلة، أُخرِج حبلًا بيننا. أزحف بجنس! مأخوذًا لحظة، من بعد القيام أقفز وأقطع. أمّا الآن فأكتمُ هذه الحقيقة، كلُّ فارس جديد يكتم الحقيقة.
المسافةُ تُدعى الحلم.

VII

كلمة لم تتوتّر قبلي. واحدة. أعطني وأرخني. ضعها، أأفتح يدي؟ مكاني مُنظّف، واحدة، أيُّها الجبين، أتوسّل إليك.

هاتها!

«خُذْها».

تنزل نُقطة. بالماء أحنيكِ؟ كان في حلم صيّاد سَمَكة، فجأة نطّت إلى الماء وكرّرت أبدًا. يا لكِ! طَفْحُكِ في قلبي، اختلاطكِ في قلبي، رُقَعُ ذراعيك في قلبي، عمودُ نور يصغر ويفرّ، أنتِ الوَجَع الضحك! إنّني أربخ تحت آثارك المتلاشية.

نهدان نهضة الشجر، نهدان سَمَكَةُ البحر العائدة إلى البحر، نهداكِ أطيافك عبثًا أختال على رصيف أطيافك.

بماءة أُحضرك؟ رخو حتّى العار، عار حتى أنا!

نهداكِ يا زَلِقَة...

مُحتاج إلى الريق!

كلمة لم تتوتّرْ، لم تترنّح، لم تُضرَب من قبل رصاصة. لا أريد شيئًا أترككم. أطلب أن أُعبّر! عذراء تعالي، أردّكِ عذراء. عابرة عَرَبة. حبيبتي (ليستْ هكذا مُجوّفة. ما هي؟) عين الشمس (لو أطحنك يا لعثمة!) لكنْ تحت وهجكِ سوف تَطرف. لا وارث لي، ما تخسرين؟ سُلالتي عاقر نهايتي ونهايتها، لن تُسجَني، يا كلمة، اظهري!

«تستحقّ. كفكف هذا الحزن جلّس قامتك، خُذْها، كلمتك السيف».

لقد أُعطيتُ.
السماء انقشعتْ فلأُلطّخها.
لقد أُعطيت.
مِن تحتي كُلُّ سَهْل، كُلُّ جرادة!
قالت حبيبتي «خُذْها»، فأمعنتْ تبعد.
تُضاحِكُ الكلمات. قَدَمها الحافية! آه! . لستُ سفّاحًا على قدْر حقّي.

VIII

كُنتُ لا أنظر إليكِ، أتبعثر في الجميع وأقلبك. يطير في الأخير الصدأ، أيّتها الخشخاشة الميتة، وألفظ غصّتي بالجمع. ينبغي مسحها، كُنت أقول. لا تُبالين؟ إنّي واثق، ونهرك يلطم لحم السدّ ويَنْشج. كاذبة يا عذراء، مشروبة كالنبيذ، مقضومة كفستقة. أتّهمكِ أنّ خِلسة تُدحرجين وجهك الحقيقي لتهزميني. «غريب أنت! كدتُ لا أراك!». كشمعة تولولين ويصعد منكِ تيّار الحريقة.

يا مملوءة مطرًا وشمسًا، تعالَيْ نتّفق، اعقدي خنصرك في خنصري كعداوة: لا تريني! اغرزي ابتعادك في كبدي، فوق الخطر، إنّني آكِلُ لحمي ومَلِكي وعبدي. رؤيا لهّابة؟ فلتحشّش الرؤى! يقظان كسَمَكة، أُعلّق فخذيّ على لافتة، أنطفىء وأُضيء: «لا تخلعيني». كنت أنظر بابًا وماء، كُنتُ أنظر فأراني، صرت أراكِ.

...! أرفُض!...

ماذا صنعتِ بعهد الرحمة؟ أتبنّى الوحدة تلجأ لي.

أُخلّصكِ. من يسمع؟ النجدة! زمنَ القبو الدهنيّ يا زمن انعقاد الإرث يا زمن الشّعر الدهنيّ، النجدة! يا زمَن العَكَر الدمويّ، يا زمني! فلتُرفَع عنّي وتُنعَش، من يمنعها حتّى من تجاهلي، يُقنعها أنْ لم أوجَد،
يُقنعني (نباح مضروب بخَرَس) أنّها لم توجَد؟

IX

ليس في جواريَ مَرْكب لأخشى الإنقاذ. السماء ملأى بالأبواب تُقفَل على الأبواب وجدارُ الصحراء ابتلع ظلّه. لا أفهم هذه القسوة عليّ، أنظرُ كُلّ اتّجاه فلا أرى غير وحدتي مُتكرّهة من أطوارها؛ أنظرُ حولي فلا أرى غير عينيّ؛ أتردّد، أعقف عينيّ إلى داخلي فأرى، وحدهما، عينيكِ.

طَيَّرَ ملائكة إليهما. عين بتيّار الصقيع، أخرى لارتعادي. أشهر منّي، عينكِ المُعرضة عنّي. خلف الصخرة تنتظرني بطلة، خاذلة، أبعد من تقطّعاتي المَفريّة. أيّ فشل منفوش أنا، أيّ رُتيلاء جاهشة بالقرف! أسقطُ فلأسقط، لكنْ دعيني لا أُقفقف وأنا أهوي، أعطيني هبوطًا عموديًا، صاعقًا! لا تُطارديني بعين تغلبني لأنّها تراني. في حاجة لناقل يحمل لكِ وَقْعَ تَحطّم كبريائي وجَلَدي. لكنّي مُسلّم ومتروك، أُفخّم تصاغري علّني أفتلذكِ رحمة، أستنهض فيك الشبع من سهري على رفضك،

فيُحشى فمي بكوعي!
أيّتها المُتفرّجة المُرغَمة!
أيّتها المُتفرّجة الخبيثة!
أيّتها المُتفرّجة الضارية لمَ لا تُعطينني إشارة التوقّف؟
حلمتُ أنْ تُباريني بخرق الوحل للأغزر حفلًا بالحقارة ربّما تفهمين سرّي لاحتلاب شفقتك. كتمت عنكِ الحلم، خفتُ على أُسلوبي! ليتني صارحتكِ ونجوت!
في عينك البربر والمسوخ، أوثان القهقهة والذبح، أفكار الحبّ السفر، الحبّ والذئب، الحبّ وغيري! قارّتُكِ عينك، أطلبُ الرزق في سنابكها فأرتطم بوجهي وإرادتي. ماذا أفعل، وحذاؤكِ له الأرض؟ كيف أخلع الأرض، أُفرّغ المهبط تحت قدميك؟ كيف أُصبحُ التراب لأرافق خطواتك أعدّها، أعدّها، وفي يوم ماطر أصير وحلًا فأُلوّثك، أُلوّثك، وفي اليابس أعلَقُ غبارًا بعينيك، آخذ دمعة إثر دمعة من عينيك، أغدو على ثيابكِ من عاداتك، أنتقل إليكِ. إيه التراب! يستطيع!
عينكِ كلّ الوقت، تركض في منفاي لا تراني. عينكِ الريح الباردة، عَيْنيَ الوَرَقة.

X

ما في البحر وادٍ، أهُنا أنتِ؟
للنسوة والأطفال عُرى متشابهة، أنا الرجل أتوسّع أو أضيق، تنفخني الأشياء بأحجام مختلفة. إنّ فيكِ طفولة التلّة وأنوثة الوادي، أضيق وأتّسع وإذا لم تكوني حاضرة فأين يكون حزامي؟ بَشَرتي مُنشّاة وأعصابي صاعدة وما زلتُ مُتأكّدًا أنّ كُلّ ما لم ينفقئ سوف ينفقئ. لا زلت بالبنّ أُخضّب الحليب ومن يُحيط بي أصير رفًّا له، والأسَودُ فَيضي، ولست وحدي يا مخدوعة بي. أعتلي مكبّر الصوت لأنّ جماهيري أعرفها، مؤمن بها أحتقرها المستقبل لها! وهي لم تصنعه، قاعدة في دوْريَ كالحملان السميكة.
هكذا أُتابع. ومن يلومني أحتاج إليه وهكذا أمحوه، ومن يبايعني يُضجرني وهكذا أمحوه، ومن يحاربني أُعطيهِ يدي وهكذا أمحوه. وهكذا أتسلّق لأنّني الطريق ولا أوقَف. هذه رسالتي ولكنْ عواطفي منذورة وتغدو كالكلس، ومُجمّدة أمام حَرّها الرملي. الشوق عين محكومة تترصّدكِ خفية فالبحر بلا واد وفوق هذا لو

أغرق.

عرفتِ ما يحملني إليكِ. شيء آخر: عرفتِ أنّ الغارق لجوج والبحر رافض.

XI

من نحن؟ فُرسان الطائر الكبير. لحظة التوقّف كانت هَرَمًا، والنفي يَفلحنا، ثمّ يملّنا فنسحقه لأنّنا معه لا لتسقطه المباخر. صارت الحرب من الريق السابق، موتُنا الموتَ الأجدر، الأوّلُ مات، ولندفنَه نريد روحه المنتصَفيّة.

ما عدانا حقْدُنا، نحن صيدليّو عشبةِ الهلاك الباتّة، شهادةِ استحقاق التبذّر المطلِق، آهِ ما أشدّ ما كنّا نبلاء وحقيقيّين!
كانت سيادةُ العين الواعية!
ماذا كُنتُ؟
مُحيطَ الزبد القاتم، قائد اللّوعة والرماد. كنتُ أتساءل، لدى تخاذلي ومحبّتي، لمَ أكون ووحدي لا تنفتح مظلّتي في المطر، لمَ أُخانُ فأفْلت أُصْدم أُبطَح، ومُنيّبًا أمضي بلا صَدَفة!
كنت أختمني لتبدأيني.

الآن تتلولبين فيّ كأنّكِ المجرّد. أفكّركِ! أُفكّرك! أدور
كوحش سعيد أبحث عن مركزي خارج فكري، أنتِ!
وأقع، أُؤسّس لهزيمتي.
أيّتها العائمةَ! أيّتها الإسفنجة الزهريّة! صعّدْتِني حُلُمَ
العين المغمَضة.
لكنّي لا أراكِ ورائي!

XII

يا قشّة البحر الوحيدة:
كَسَرْتُكِ، لم أكسرْكِ
سرطانًا أُحوّل أُشنةَ القاع إليّ، أذهبُ للباقي أُضخّمه،
أفتح رمشه على جسده، ييأس، يُجنّ ويُسرِع. لن.
أرخيتِني أغرق
أتعمّر على طريقتي، إرثيَ أبذلُه وأرفعه. حكمة هذياني:

لن،

يا جدار العيون، أيُّها الموعود لنْ، يا آخر كُريّة، أنتِ هو الشّلّال. بكِ أفتتح النظر وأختمه، فيكِ أزعق وأرقص. يا يدي على السرّ، يا مُطلِقتي، أيّتها المُطْلَقة. على الشمس لَنْ، على صخرة اليوم الثالث، على الدم. يا زهرة الجِلد، ملايين ونحن بالعضو نسقيكِ، وبالعَرَق، وها تنبتين

بارتياح يا مملوءة لعنة! أغنّيكِ فلأكن رنّتك وحبّةَ
زيتونك يا معصرة. لن!!! إخترعنا موتنا، يُرجَع موتُكَ
أنت. صَنَعْنا موتنا وطريقه، ولونًا له!
أرخيتِني، يا قشّة البحر، لم تُرخيني، لا فرق. أغرقُ فهذا
هو. أغرق أو أحلّق، أو أنام. لا وجهةَ لا وجهة! أُسرطِنُ
العافية، أهتكُ الستر عن غد السرطان
حُرّيّة!